

الشيخ اليوسف: من أهم مقاصد الدين حفظ الصحة العامة للأفراد والمجتمع

أكـد الشـيخ الدـكتـور عبدـاً أـحمد الـيوـسف فـي خطـبة عـيـد الفـطـر غـرـة شـهـر شـوال 1442 هـ عـلـى أـن مـن أـهم مقـاصـد الدـين هـو حـفـظ الصـحة العـامـة لـلـإـنـسـان وـالـمـجـتمـع، حـفـظ النـفـس مـن كـل مـا يـضرـ بـها، وـالـتـمـتع بـحقـ الـحـيـاة لـلـأـفـراد وـسـلامـة الـمـجـتمـع مـن أـولـويـات غـايـات الدـين وـمـقـاصـدـه إـلـإـنـسـانـيـة النـبـيـلة، وـهـذـا يـتـطلـب حـفـظ صـحة إـلـإـنـسـانـيـة وـالـنـفـسـيـة وـالـعـقـلـيـة وـالـبـدـنـيـة، وـهـو مـا يـسـتـلزم الـمـحـافـظـة عـلـى الـبـيـئـة الـصـحيـة فـي الـمـجـتمـع.

وأضاف: تعتبر الصحة من أفضل النعم الإلهية التي أنعم الله بها على الإنسان، لأنه بهذه النعمة يستطيع أن يقوم بأعماله الدينية والدنيوية بكفاءة عالية، ويستلذذ بتمتع الحياة المباحة، ويستمتع بحياته على خير وجه وبأفضل صورة؛ ولذا يدعو الشرع والعقل إلى الحفاظ على نعمة الصحة، وعدم التفريط بها، لأن من يفرط بصحته يفرط بحياته كلها.

وتاتبع: كما لا يصح للإنسان أن يف्रط بصحته الشخصية، لا يصح له كذلك أن يف्रط بصحة مجتمعه، لأن الحفاظ على الصحة العامة من أوجب الواجبات عقلاً وشرعياً.

واعتبر أن من مفاتيح جودة الحياة الحفاظ على الصحة العامة للإنسان، والوقاية من الأمراض المختلفة، وذلك لأهمية الصحة في حياة الإنسان نفسه، ومسار المجتمع الإنساني بصورة عامة، فالمرء الذي يتمتع بصحة عالية يشعر بالسعادة، ويمتلك القدرة على العمل والعطاء والإنجاز والنشاط.

وأشار إلى أن من تفتك به الأمراض والأسقام المزمنة يفقد - غالباً - القدرة على ذلك؛ كذلك حال المجتمعات من حيث الصحة والمرض، والعافية والوباء؛ حيث تعاني المجتمعات المصابة بالأوبئة وكثرة الأمراض المزمنة من تأخر في التنمية، وكсад في الاقتصاد، وتأخر عن ركب التقدم والازدهار.

وأوضح أن الصحة أفضل نعمة لأن كثيراً من النعم الأخرى ترتبط بها وجوداً وعدماً، ولذا قال أمير المؤمنين الإمام علي[ؑ] (عليه السلام): «الصَّحَّةُ أَفْضَلُ الْزَّعْمَ».

رسول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ مَفْتُونٌ فِيهِ مَا:

الصّحّةُ والفراغُ» ، وروي عن الإمام الصّادق (عليه السلام) قوله: «العاافية نعمَةٌ خَفِيَّةٌ، إذا وجِدَتْ نُسُبَاتٍ، وإذا فُقِدَتْ ذُكْرَاتٍ»، وعنَهُ (عليه السلام) قال: «كَمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ!».

ودعا إلى عدم التفريط بنعم الصحة، لأن من يفرط فيها تتنفس حياته، وتتقدر معيشته، وي فقد الكثير من السعادة والتمتع والطمأنينة والراحة، وقد روي عن الإمام الصّادق (عليه السلام) أنه قال: «الذّعيمُ في الدنيا الأمُّ وصحّةُ الجسمِ، و تمامُ النّعمةِ في الآخرةِ دُخُولُ الجَنَّةِ».

وقال: كما يجب على الأفراد المحافظة على صحتهم، كذلك الحال مع المجتمع كله، إذ ينبغي على الجميع اتباع سبل ووسائل الوقاية للاحتراز من الأمراض بكافة أنواعها، وخصوصاً الأمراض الوبائية والمعدية، كما هو الحال مع (جائحة كورونا) التي حولت حياة المجتمعات البشرية في العالم كله إلى توقف شبه كامل في مفاصل الحياة العامة، وأثرت على الاقتصاد والأعمال والسياحة ومختلف جوانب الحياة وأبعادها.

ودعا إلى اتباع الوسائل الوقائية والإجراءات الاحترازية للقضاء على وباء كورونا وذلك عبر تجنب المضافة والمعانقة وغيرها من الأمور التي كنا نمارسها في المناسبات الاجتماعية وخصوصاً في أيام الأعياد، والاهتمام بلبس الكمامات وغسل اليدين والمحافظة على النظافة العامة وأخذ لقاح كورونا وغيرها من الوسائل الكفيلة بالوقاية من هذا الوباء الوبيـل.

وفي الخطبة الأولى لعيد الفطر المبارك شـدـد فضيلة الشيخ يوسف على التحليل بروح الإخلاص في جميع أبعاد الحياة، لأنه أساس الفضائل، وأعلى مراتب الإيمان، وملك العبادة، وجوهر الطاعات، ومناط قبول الأفعال وصحتها.

وقال: الإخلاص ضد الرياء، والمراد به الإتيان بالأعمال خالصةً وحده، ابتغاء وجهه الكريم، ونيل فضله العظيم؛ ويطلب هذا تنقية الأفعال من شوائب الرياء والسمعة والنفاق والخداع وكل ما ينافي روح الإخلاص، وخلوص الأفعال وتجردتها من كل ما يكدر صفوها، ويدهـب أجراها، ويمنع قبولها.

وتـابـعـ قـائـلاـ: أـمـاـ الـرـيـاءـ فـهـوـ الـإـتـيـانـ بـالـعـبـادـةـ أـوـ بـأـعـمـالـ الـخـيـرـ لـطـلـبـ الـمـصـلـحـةـ الـمـادـيـةـ أـوـ حـبـ الـظـهـورـ وـالـجـاهـ أـوـ كـسـبـ الـسـمـعـةـ وـالـرـفـعـةـ بـيـنـ النـاسـ؛ وـهـوـ مـنـ أـسـوـأـ الصـفـاتـ، وـأـذـمـ الـخـمـالـ، وـأـرـذـلـ الـأـخـلـاقـ، وـلـذـاـ مـقـتـهـ إـلـيـهـ أـشـدـ المـقـتـ، وـذـمـ صـاحـبـهـ بشـدـةـ، وـازـدـرـىـ عـمـلـهـ، كـمـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: يـُرـآـؤـونـ الـذـاسـ وـلـاـ يـَذـكـرـونـ اللـهـ إـلـاـ فـلـيـلـهـ وـهـوـ مـنـ مـفـسـدـاتـ الـعـلـمـ وـمـحـبـطـاـتـهـ؛ فـالـرـيـاءـ لـاـ يـصـلـحـ دـنـيـاـ،

ولا ينفع في الآخرة.

وأشار إلى أن التحلي بالإخلاص هو أشرف نهاية، وأسمى غاية، لما روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «الإخلاصُ أشرفُ نِهايَةٍ» ، وهو غاية العباد المخلصين، لما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «الإخلاصُ عِبادَةُ الْمُقَرَّبِ بَيْنَ» ، وهو غاية الدين لما ورد عنه عليه السلام أيضاً: «الإخلاصُ غَايَةُ الدِّينِ» لأن هدف الدين هو الارتفاع بكمال الإنسان الروحي والمعنوی، وإتقان العمل وجودته، ولا يتحقق ذلك إلا بالإخلاص.

وبعد أن من شرائط قبول العبادات الخلوص والإخلاص، لأنه روح العبادة وحقيقةها، إذ يتشرط في النية أن تكون بداعي امثال أمر الله تعالى، والإخلاص في العمل، والتجرد عن الرياء، فلو صلى - مثلاً - وكان باعه عليها الرياء بطلت صلاته لفقدانه النية الحالصة؛ إذ يجب أن تكون نية العبادات، ومنها نية الصلاة، حالصة لله عز وجل ، لأن صحتها متوقفة على ذلك، وأن النية هي الباعث المحفز على العمل، فكلما خلصت الله تعالى وصفت من شوائب الرياء والخداع والنفاق كانت أقرب لقبول المولى، والفوز برضا رب، لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا عَمَلْتَ عَمَلاً فَاعْمَلْ لِلَّهِ حَالِصاً؛ لَا تَرَهُ لَا يَقُولُ مِنْ عِبَادِهِ الْأَعْمَالَ إِلَّا مَا كَانَ حَالِصاً» ، وعنده صلى الله عليه وآله قال: «أَخْدُمُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقُولُ إِلَّا مَا خَلَقَ لَهُ».

وقال: من الأمثلة الواضحة في مجال العبادة على تثبيت الإخلاص هو صوم شهر رمضان، وقد أشارت السيدة الزهراء (عليها السلام) إلى ذلك بقولها: «فَرَضَ اللَّهُ الصَّيَامَ تَثْبِيتاً لِلإخلاص» ، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «فَرَضَ اللَّهُ ... الصَّيَامَ ابْتِلَاءً لِلإخلاصِ الْخَلْقِ» ، وذلك لأن الصوم إنما يكون بإرادة الإنسان و اختياره، فهو يمتنع عن جميع المفطرات في السر والعلن قربة إلى الله تعالى، مما يقوى ويثبت روح الإخلاص في نفس الإنسان وقلبه؛ إذ بالإمكان أن يتظاهر الإنسان بالصوم أمام الناس ويفطر في الخلوات.

ورأى أن من الأمور التي تنمي ملكة الإخلاص عند الإنسان هو أن يحرض على إتيان بعض العبادات المستحبة بعيداً عن أعين الناس؛ كالإتيان بالنواقل وصلة الليل والدعاء والمدقة والبكاء من خشية الله تعالى وغير ذلك.

ولفت إلى أن الإخلاص لا يقتصر على العبادات والأمور الأخروية فقط، بل هو أمر مطلوب في جميع شؤون الحياة، فكما هو مطلوب في العبادات، مطلوب أيضاً في الأعمال الصالحة، ومطلوب كذلك في الأعمال

التطوعية، وفي العمل الوظيفي، وفي كل شؤون الحياة؛ لأن الإخلاص قيمة من القيم الإنسانية الفضلى، وفضيلة من فضائل الأخلاق التي يجب التحلي بها في كل شيء.

واعتبر أن الإخلاص في العمل بكل صوره ومحالاته من أهم العوامل لإتقانه وإنجاحه، ومع فقدانه يفقد العمل صفة الإتقان المهمة في إنجاز العمل وتطويره.

وأكد على أن الإخلاص في العمل بحاجة إلى تصفية القلب وتنقية الوجدان من أية شوائب محسوسة أو غير محسوسة تمنع المرء عن الإخلاص، ولذا روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «تَصْفِيهُ الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنِ الْعَمَلِ» ، وعنده عليه السلام أيضاً قال: «تَصْفِيهُ الْعَمَلِ خَيْرٌ مِنِ الْعَمَلِ» ، ويستفاد من هذه الأحاديث وغيرها أهمية الإخلاص في العمل وصعوبته نتيجة لتشابك البواعث النفسية والمصلحية والمنفعية مع نية الإخلاص.

وشدد على أن الإخلاص مطلوب في الأعمال كلها، وأن المهم ليس مجرد العمل وإنما كيفيته وحقيقته، فالقليل من العمل مع الإخلاص أفضل من العمل الكثير من غير إخلاص، لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَخْذُهُمْ قَلْبَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنِ الْعَمَلِ» ، وعنده صلى الله عليه وآله قال: «أَخْذُهُمْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنِ الْعَمَلِ».

وشبه العمل الكثير من دون إخلاص بالماء الكثير المالح الذي يزيد الطمأن عطشاً، بينما الماء القليل العذب يروي طماً العطشان، وكذا الفرق بين العمل بإخلاص والعمل المتجرد من أي إخلاص.

وقال: إن الله تعالى إنما يتقبل العمل الخالص له، وأما من يأتي بأي عمل وإن كان في ظاهره حسناً بلا إخلاص فلا ثواب له ولا أجر، فالذي ينفق ماله رئاء الناس فلا يتقبل منه وإن أنفق كل ماله لقوله تعالى: ﴿كَمَا لَّذَى يُنْفِقُ مَالَهُ رَئَاءَ النَّاسِ﴾ ، فلا قيمة له عند الله ولا وزناً؛ وهكذا الأمر في كل عمل لا إخلاص فيه، لا يتقبل من صاحبه عمله، لأنه يفتقد الإخلاص الذي هو شرط في قبول العمل.

وختم خطبته بالإشارة إلى أن للإخلاص آثاراً وفوائد عديدة، ومنها: الهدایة إلى طريق الحق والخير والصلاح، ومنها: أن الله تعالى يوفق المخلص في أعماله، ويكفيه أمر الدنيا والآخرة، ومنها: الخلاص من وساوس الشيطان ومكائده، ومنها: أنه يقضى على النفاق والرياء وحب الظهور والسمعة، ولا يخفى ما للإخلاص من فوائد وآثار اجتماعية كبيرة تعود بالنفع والفائدة على تقدم المجتمع ورفقيه وازدهاره.

